العادات والتقاليد الفارسية في البلاط العباسي
(العصر العباسي الأول)

د. كمال الحاج الحسين عبد الرحمن
أستاذ مشارك – كلية الآداب والدراسات الإنسانية – جامعة دنقلا

إن نفوذ الفرس في البلاط العباسي ، كان له جذور متصلة بالدعم الفارسي للعباسيين ، والعلاقة الخاصة الوطيدة التي جمعت بين خلفاء الدولة العباسية في عصرها الأول ، بالعناصر الفارسية ، وبدأت تلك العلاقة مع بعض أفراد البيت العباسي قبل توليهم الخلافة .

ظهر في البلاط العباسي من الفرس بجانب الأسر الحاكمة والوزراء والقادة والعلماء والفقهاء والأطباء ، كما كان للشعراء والأدباء مكان داخل القصور، وامتلأت قصور الخلفاء بالجواري والغلمان والخدم . وشكل الفرس وجوداً مؤثراً في البلاط العباسي من خلال تلك الفئات المختلفة ، وسوف يتناول هذا المقال أثر ذلك الوجود في العادات والتقاليد الفارسية التي ظهرت في البلاط والمجتمع العباسي في عدة مجالات منها: الاهتمام بالشعر والشعراء والغناء والموسيقى، وفي عادات وتقاليد الزواج وكذلك ألوان الطعام، وفوق هذا وذاك التأثر بعمارة القصور وأثاثها وتقاليدها.

يمثل الظهور المبكر للفرس في البلاط العباسي منذ عصر السفاح ، الذي أُعجب بخالد بن برمك الذي عاش في قصر السفاح ، بل أن هنالك علاقة خاصة نشأت بينهما ، فدفع السفاح بابنته ريطة لترضعها زوجة خالد بن برمك (الجهيشاري ١٩٣٨م، ص٨٩)، وذهبت العلاقة إلى أبعد من ذلك ، ويورد الجهيشاري قولاً يؤكد وصول الفرس إلى داخل القصر ويشير الى مشاركة ابنة

خالد بن برمك ابنة الخليفة السفاح الفراش، (فقال أبو العباس يوماً لخالد بن برمك : لم ترض يا ابن برمك حتى استعبدتني ! فوجم من ذلك ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين ، فقال له : كانت ريطة و أم يحي في فراش واحد فتكشفتا ، فرددت عليهما اللحاف ، فقبل يده وشكر له ، ولم يزل على منزلته عنده إلى أن توفى أبو العباس) (الجهيشاري ١٩٣٨م ، ص ٨٩) .

أتاح هذا الوجود لأسرة البرامكة تولي أرفع المناصب لاحقاً . سار الخلفاء بعد السفاح في الاستعانة بالفرس بناءًا على علاقة سابقة قبل توليه الخلافة ، هذا ما فعله الخليفة المهدي في اختياره لأبي عبد الله معاوية بن عبد الله وزيراً له ، والذي كان كاتباً للمهدي عندما بعثه المنصور مع ابنه المهدي إلى الري موكلاً له مهاماً تدل على الثقة التي أولاها له المنصور، حيث جعله مستشاراً لابنه المهدي (.. أوصى المنصور ابنه بامتثال ما يشير به) (حسين مجيب المصري د.ت ، ص ١١٣) .

وثق الخليفة المهدي علاقته بالفرس ، فجعل الوزارة ليعقوب بن داؤود وأعجب به ولقبه بأخيه في الله كناية عن الوداد بينهما (ثم اختص المهدي ليعقوب بن داؤود ، وخرج كتابه على الدواوين : إن أمير المؤمنين قد آخاه ، وكان يصل إليه في كل وقت دون الناس كلهم) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣١٢).

أقر الخليفة الهادي مساعدي أبيه من الفرس على ما كانوا عليه أيام أبيه في الوزارة والحجابة ، وأخذ في استشارة البعض منهم في أمور الدولة ، فعندما عزم الخليفة الهادي على نقل ولاية العهد من أخيه الرشيد لابنه ، كان أن استشار يحي بن خالد البرمكي في ذلك ، وفي هذا دلالة على نفوذ يحي بن خالد داخل القصر .

قويت جذور الصداقة بين أفراد البيت العباسي والفرس من خلال علاقتهم بأسرة البرامكة ، عندما نشأت أخوة الرضاعة بين هارون الرشيد والفضل بن يحي بن خالد البرمكي ، هذا يشير إلى تداخل الفرس مع الأسرة الحاكمة حتى وصل لأن ترضع الفارسية ابن الخليفة العباسي المهدي (... إن الرشيد ولد أول يوم من

المحرم سنة ١٣٩هـ وكان الفضل بن يحي ولد قبله بسبعة أيام ... فجعلت أم الفضل ظئراً للرشيد فأرضعت الرشيد بلبان الفضل وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد) (الطبري ١٩٨٩م ، ص٤٤١) .

كان لهذه الأخوة في الرضاعة الأثر الواضح في علاقة الرشيد بيحيى ، اذ كان يدعوه بأبي ، وازدادت قوة حين جعل الخليفة المهدي يحي بن خالد مربياً ومؤدباً لابنه هارون (... ووكله المهدي بكفالة الرشيد فأحسن تربيته) (ابن خلدون ١٩٨٨م ، ص ٢٨٠) .

صار يحيى بن خالد – من تلك المكانة – يشرف على أحوال قصر الخليفة هارون ويشرف على خدمة نسائه حسب ما اقتضته طبيعة العلاقة ، الأمر الذي لم يعجب زبيدة زوجة الرشيد (فشكت زبيدة إلى الرشيد ... فقال يا أمير المؤمنين : أمُتَّهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣٣٧) . وبلغت صلة الخليفة هارون بيحي مستوى رفع الكلفة بينهما ، حيث منحه الرشيد حرية الدخول عليه في أي وقت شاء ودون استئذان ؛ ويقف عند دخوله إليه الخدم والحشم (... حتى أني كنت أدخل على الرشيد وهو في فراشه مجرداً حيناً ، وحيناً في بعض إزاره) (الطبري ١٩٨٩م ، ص ٤٤٣) .

كانت هنالك علاقة خاصة تجمع بين الرشيد وجعفر بن يحيى ،الذي كان من ندماء الرشيد ، بل ظل جعفر في العاصمة بجانب الرشيد رغم توليه بعض المهام الإدارية في الولايات (كان جعفر متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، واصلاً منه ... ، حتى أن الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان ، فكان يلبسه هو والرشيد ، ولم يكن للرشيد صبر عنه ...) (ابن خلكان د.ت ، ص ٣٣٢) . وزادت ثقة الرشيد في أسرة البرامكة ، فدفع بابنيه الأمين والمأمون ليكونا تحت رعايتها ، فوضع الأمين في حجر الفضل والمأمون في حجر جعفر .

بلغ نفوذ البرامكة مبلغاً عظيماً ، فأصبحت لهم مجالسهم الخاصة التي تضاهي مجالس الخليفة الرشيد نفسه ، وكمال علاقتهم بالبلاط يظهر في حضور الرشيد مجالسهم ، إذ من المقبول أن يذهب الوزراء إلى مجالس الخلفاء والأمراء ، لكن تبدل الحال عند البرامكة ، مما يؤكد وقوع الرشيد تحت تأثيرهم (وكان الرشيد إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة والمطارح من الوشي والديباج والجواري يرفلن في الحرير والجوهر) (جميل نخلة ١٩٣٥م ، ص ٨٩) .

استقدم العباسيون علماء الفلك والمنجمين من بلاد فارس ، بدأ الخليفة المنصور ذلك باصطحابه لنوبخت المنجم الفارسي ، ويتضح تأثير المنجمين في سياسة الدولة في عهد المعتصم ، الذي أشار عليه المنجمون بتأجيل فتح عمورية ، كما حرص الخلفاء العباسيون على استقدام العلماء الفرس إلى دار الخلافة وحضورهم مجالس الخلفاء ، كما استعان الخلفاء بالأطباء من فارس ، فكان أن طلب الرشيد طبيباً فارسياً حين اشتد به الألم (... لما اشتدت علة الرشيد وصار إلى طوس هون عليه الأطباء علته ، فأرسل إلى متطبب فارسي كان هناك) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣٦٥).

وجد الشعراء والأدباء مكاناً فسيحاً في بلاط الخلفاء ، فالشاعر أبو العتاهية كان ملازماً للرشيد في حله وترحاله ، بل كان أنيساً له ، ونظم شعراً في مجالس الخليفة (... كان أبوالعتاهية يلازم الرشيد في خلافة المهدي ، فلما ولى الرشيد الخلافة كان أبو العتاهية لا يفارقه في مقر ولا سفر ، إلا في طريق الحج) (عمرو أبو النصر ١٩٣٤م ، ص ٦٩). وظهر دور ابن المقفع الأديب الفارسي في البلاط العباسي ، في ذلك الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي حين أمنه المنصور . كلف الخلفاء العباسيون بالغناء كلفتهم بالشعر ، وظهر أول مغني بالبلاط العباسي من بلاد فارس ، وهو ابراهيم الموصلي وابنه إسحق اللذان عطرا مجالس الخلفاء

بأعذب الألحان (ابراهيم الموصلي من بيت كبير في العجم وأول خليفة سمعه المهدي بن المنصور) (ابن خلكان د.ت، ص ٤٢).

استمر خلفاء الدولة من بعد المهدي في سماعهم للغناء من الفرس لبراعتهم في ذلك، ولعدم معرفة العرب بضروب الغناء الذي يؤديه أولئك المغنين، وقد كانت مجالس الخليفة المهدي عامرة بوصلات من أغانيهم الطروب (قال اسحق بن إبراهيم الموصلي قال لي المهدي يوماً : غنني جنساً من الغناء أطرب له ولك حكمك) (الجهيشاري ١٩٣٨م ، ص ١٧٥) .

امتاز العصر العباسي الأول بكثرة المولدين ، وهم الجيل الذي اختلطت دماؤه نتيجة للتزاوج الذي تم بين العرب والموالي الفرس ، مما أوجد جيلاً يحمل خصائص وطبائع مختلفة، فقد قال أحد جند العراق :(شهدت القادسية مع سعد ، فتزوجنا نساء أهل الكتاب ونحن لا نجد كثير مسلمات ، فلما غفلنا فمنا من طلق ومنا من أمسك) (شكري فيصل ١٩٥٢م ، ص ١١١). لم تخلُ قصور الخلفاء العباسيين من المولدين، مما أدى إلى ما عرف بالتسري ، وهو الزواج من الإماء ، وظهر بذلك أمراء من أمهات غير عربيات ، ويمثل الخليفة المأمون هذا الجيل من المولدين ، إذ أن أمه " أم ولد " فارسية تدعى مراجل .

ازدحمت قصور الخلفاء بالموالي والإماء ، الذين استخدمهم الخلفاء في شتى خدمات القصور ، فكان الخدم غالبيتهم من الفرس ، وكره الخلفاء العباسيين أن يخدم حرمهم أفراد من العرب وقد يكون ذلك لأنفة العرب وترفعهم عن الخدمة داخل القصور ، وربما أراد بنو العباس ألا يطلع العرب على أسرار حريمهم داخل القصور (كان للمنصور خادم ماهر لا بأس به فقال له المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عربي يا أمير المؤمنين .... قال : إما انك نعم الغلام ، ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي ، أخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت) (الطبري ١٩٨٩م ، ص ٣٣٩) . أدى هذا الوجود الكثيف للفرس داخل قصور الخلفاء الى

ظهور بعض العادات والتقاليد الفارسية في حياة الخلفاء العباسيين وامتدت لتشمل طبقات المجتمع المختلفة .

الغناء والموسيقى :

انتشر الغناء في المجتمع العباسي ، وسبب ذلك وجود القيان والمغنيات في قصور الخلفاء ، وكان ذلك بتأثير فارسي ، فالقيان الفرس عُرفن منذ العصر الجاهلي، ويؤكد ذلك الاتصال المبكر بين العرب والفرس عبر مملكة الحيرة التي قلد ملوكها ملوك فارس في حياتهم الاجتماعية ، وانتقل ذلك إلى المجتمع العباسي (ان النضر بن الحارث كان يحدث قرشياً بقصص الفرس ، وكان يشتري القيان الفارسيات) (أحمد محمد الحوفي د.ت ، ص ٦٨) . تطورت معرفة العرب بالغناء في العصر العباسي الأول ، فأصبح للمغنين شأن عظيم عند الخلفاء ، وبلغ اهتمام الخلفاء العباسيين بالغناء حداً أجازوا فيه لأبنائهم تعلم الغناء ، فكان إبراهيم بن المهدي وأخته علَّيه من المهتمين بالموسيقى والغناء ووجدوا تشجيعاً من الأسرة (إن هارون شجعهما على العزف إمامه ، بل سر من رؤيتهما ينافسان موسيقى البلاط) (الأصفهاني د.ت ، ص٥١) .

يبدو أثر الموسيقى الفارسية واضحاً في أسماء الآلات الموسيقية لدى العرب، مثل العود الذي يدعا " البربط " في الفارسية، واستخدمها العرب بهذا الاسم كما ورد عن صاحب الأغاني: (لقد رأيت عشر قيان يغنين بالبرابط) والبربط يعني في الفارسية صدر البط (محمود الحفني د.ت ، ص ١٨-١٩) .

مثَل الغلمان و الخصيان إحدى ركائز البلاط العباسي ويخص كثيراً من المؤرخين ، الخليفة الأمين بهذا الأمر ، وينسبون إليه الولع بالغلمان. زاد الأمر شيوعاً وتناول الشاعر أبو نواس الغزل بالمذكر ، وهو موضوع لم يعرفه الشعر العربي ويحرم ذلك الإسلام ، وانما هي عادة فارسية وجدت طريقها الي المجتمع العباسي وراجت فيه ، خاصة بعد أن أصبح ذلك موجوداً داخل قصور الخلفاء، (وقد كان الفرس

يستكثرون من الغلمان في قصورهم ، ويستخدمونهم في أغراض شتى ، ويزينونهم بما تزين به الإناث ، فحاكاهم العرب في ذلك) (الأصفهاني د.ت ، ص ٢٠٢) . أصبح الغلمان في العصر العباسي الأول زينة مجالس الخلفاء ، ويجمع المؤرخون على أن الخليفة الأمين هو الأكثر ولهاً بالغلمان وامتلك منهم عدداً، (والراجح أن الأمين كان أول من سعى في طلبهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته) (السيوطي ١٩٥٩م ، ص٣٠) . ويروي المسعودي أن الأمين (أخذ الجواري الحسان الوجوه وقص شعورهن فألبسهن ثياب الغلمان وسلك الناس من الخاصة والعامة ذلك السبيل) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣٩٤).

كان للغلمان والخصيان مهام داخل القصور ، فالغلمان كانوا يستخدمون في الخدمة المنزلية والحراسة ، إلا أن الزيادة في عددهم ، جعل منهم غرضاً آخر وهو اتخاذهم زينة للمجالس ، فتأنق هؤلاء في زينتهم بأنواع اللباس المزخرف ، كما استعمل الخصيان في دور النساء غيرة عليهن حتى لا يطلع عليهن بقية الخدم . إن وجود الغلمان والخصيان في البلاط العباسي كان بتأثير فارسي (... ومن الغلمان طائفة مخنثة انتشروا في الكوفة منذ امتلأت بجند خراسان الذين ناصروا بني العباس ، إذ كانوا قد استقدموا معهم المخنثين جرياً على تقليد فارسي قديم..) (الحوفي د.ت ، ص ١٢٥) . انتقلت هذه الظاهرة إلى البلاط العباسي ، ولزيادة الطلب عليهم ، أقبل بعض تجار الرقيق إلى خصي البعض ، لمقابلة حاجة المجتمع العباسي للخصيان في بعض المهام المنزلية ، وهذا أدى بدوره إلى تكاثر أعداد الخصيان في بلاط الخلافة، فقد (كان يوجد بالقصر العباسي أحد عشر ألف خصي) (ابن تغري بردي د.ت ، ص ٢٤٨) .

بناء القصور والفن المعماري :

انعكس الثراء – الذي كان سمة للعصر العباسي الأول ، نتيجة الاستقرار وتدفق الأموال على الدولة – على حياة المجتمع العباسي ، الذي سار

على نهج الحياة الفارسية ، التي انتقلت بفضل الوجود الفارسي الكثيف في بلاط الخلافة . اهتم الخلفاء العباسيون والأمراء ، ببناء القصور وتزيينها وفرشها بأغلى انواع الفرش ، مخالفين بذلك حياة المجتمع الاسلامي في عهده الأول ، جاء هذا الاهتمام بالبناء من ملوك الفرس ، الذين اهتموا بتشييد القصور ، اعتقاداً منهم أن عظمة البناء تدل على عظمة بانيه وتخلد ذكراه ، يتضح هذا في وصية يحيى بن خالد لابنيه الفضل وجعفر في قوله : (لا شيء أبقى ذكراً من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً) (الجهيشاري ١٩٣٨م ، ص ٢١٧). يظهر اهتمام الخلفاء العباسيين بالقصور وشأنها في تشييد المنصور لقصر الذهب وسط بغداد وقصر الخلد . كما أن المأمون جارى كذلك الفرس في أمر البناء (... إذا ثبت لي بناء ، فاجعله ما يعجز عن هدمه ليبقى طلله ورسمه ذكراً) (الطبري ١٩٨٩م ، ص٢٩٠) لم يكن الاهتمام ببناء القصور شيمة للخلفاء وحدهم ، فقد جارى الأمراء الخلفاء في ذلك (إن المنصور زار عمه عيسى بن علي في أربعة آلاف رجل فوسعهم القصر) ، (جميل نخلة ١٩٣٥م ، ص ١١٢).

كانت قصور الخلفاء ، تصور ما كان لهؤلاء من ثروات طائلة ، فتكونت قصورهم من أقسام مختلفة ، حددت للفئات داخل القصر (مقاصد الحرم وحجرات النوم ومجالس السلام الخاصة بالضيافة) (حسن أحمد محمود د.ت ، ص ٨٨) ، تحيط بهذه القصور الحدائق المكونة من شتى أنواع الاشجار والرياحين ، وفرشت هذه القصور بأغلى أنواع الأثاث . كل أسباب النعيم هذه جعلت الخليفة المنصور يطلق على أحد قصوره اسم (الخلد) .

ألوان الطعام :

يوضح سلوك الخلفاء وكبار رجال الدولة مدى الترف الذي كانوا فيه ، ويظهر ذلك جلياً فيما تبادلوه من ألوان الطعام ، واقامتهم للولائم وحفلات الزواج وأنواع تسليتهم ، ذلك بفضل ما تكرس لديهم من ثروات . (كانت خزائن المجتمع

في العصر العباسي يأتيها الخراج بأموال طائلة حتى قيل أن المنصور خلّف حين وفاته أربعة عشر مليوناً من الدنانير) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٢٣٤) . عني الخلفاء في العصر العباسي الأول بانتقاء الطيبات من الطعام ، وكانت لذائذ الطعام تأتيهم من كافة الاقطار إلى قصورهم . وتشير الروايات إلى اهتمام خلفاء بني العباس بأصناف الطعام ، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة ، وفي هذا السياق أود السيوطي : (تغدينا مع المأمون في يوم عيد فوضع على مائدته أكثر من ثلاثمائة صنف) (السيوطي ١٩٥٩م ، ص ٣١٥) . مال الخلفاء العباسيون إلى إرضاء العامة بنصب الموائد لهم أحياناً ، (كانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم إلى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة) (جرجي زيدان د.ت ، ص ٨١) ، وفي هذا تقليد لعادة فارسية قديمة سار عليها الخلفاء والأمراء العباسيين. (كان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة ..) (جرجي زيدان د.ت ، ص ٨٢) .

تأثر العباسيون بالفرس في ألوان الأطعمة التي تناولوها وأحياناً قلدوهم حتى في آداب الأكل، (عرفوا طرائق الطعام الفارسية ، وأقبلوا على اللحوم والبقول وعلى البوارد والحلويات وعكفوا على التنويع وتفننوا في التحضير، مما لا عهد للعرب الأوائل به) (صلاح الدين المنجد ١٩٧٤م ، ص ٧٨) فطعام العرب الأوائل كان بسيطاً في ألوانه إذ اعتمدوا على الخبز والسمن ، ولم تشهد موائدهم صنوف الطعام ومطائبه . شملت موائد العباسيين ، ما كانت تشتمل عليه موائد الفرس ، بل أخذوا المأكل بأسمائها الفارسية ، فأكلوا الأطعمة الفارسية ، وطعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة ، كما كان يفعل الفرس ، فوجدت على موائدهم (السيباج : وهو لحم يطبخ بخل ، والطباهج - وهو طعام من لحم وبيض وبصل - ومنها الغانيد - وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن) (شوقي ضيف د.ت ، ص ٥٣).

عادات الزواج :

زادت مظاهر تلك الحياة وضوحاً في عادات الزواج عند الخلفاء في ذلك العصر وفيما انفقه الخلفاء على زواج أبنائهم . يدل زواج الرشيد من زبيدة وما صرفه الخليفة المهدي على زواج ابنه عظمة تلك المناسبة (أقام وليمة لم يسبقه إليها أحد في الاسلام ، ووهبت الناس في هذا اليوم أواني الذهب مملؤة بالفضة ، وأواني الفضة مملؤة بالذهب ، وزينت بكثير من الحلي والجواهر) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣١٣) . بالغ المأمون أيضاً في الصرف على زواجه على بوران بنت الحسن بن سهل الفارسي الأصل، وارضاءاً لها كان أن وافق على طلبها بالعفو عن إبراهيم المهدي الذي نازعه الخلافة . (أمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة ألف من مال فارس) (الطبري ١٩٨٩م ، ص ٣٨٩) . قابل الحسن بن سهل ذلك الاكرام بمثله في زواج بنته بالمأمون ، ويؤكد مسلكه ما كان عليه عظماء الفرس من جاه ، فنثر الحسن بن سهل من الأموال على الناس ما لم ينثره من قبل (كتب رقاعاً فيها أسماء ضياع له ، ونثرها على القواد والعباسيين فمن وقعت على يده رقعة باسم ضيعة تسلمها ، ونثر صينية ملئت ذهباً أمام المأمون عندما زُفت إليه) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٤٤٣) . ومما يشير أن كل ذلك كان بتأثير فارسي ، ما أقدم عليه الفضل بن يحيى في إعانة شاب يريد الزواج بستة عشر ألف درهم (أعطاه أربعة آلاف لزوجته ، وأربعة آلاف درهم ثمن منزل سكنته ، وأربعة آلاف درهم للنفقة على وليمته ، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه) (الجهيشاري ١٩٣٨م ، ص ١٩٥) .

مظاهر البذخ الأخرى :

اكتملت مظاهر البذخ والترف عند أفراد الطبقة الحاكمة ، بضروب من أنواع التسلية التي تعين على ترويح النفس ، فاكتظت القصور بالمغنيين والشعراء ، وسبقت الإشارة إلى اهتمام الخلفاء بذلك . أنفق الخلفاء على هؤلاء الكثير من

الأموال وجعلوهم من المقربين . بدأ ذلك الخليفة الأول (كان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه الا بصلة من مال أو كسوة .. وقد سبق إلى هذا الفعل ملك من الملوك التي للفرس وهو بهرام جور) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٤٤٣) . سار على ذلك بقية الخلفاء في الصرف على الشعراء والمغنين مما يؤكد الأثر الفارسي (أخذ ابراهيم الموصلي ١٥٠،٠٠٠ دينار ذات مرة من الخليفة الهادي) (هنري جورج د.ت ، ص ١١٩) .

اهتم الخلفاء بأنواع أخرى من التسلية ، كسباق الخيل ولعب الشطرنج وغيرهما ، يقول المسعودي : (أجرى الرشيد الخيل يوماً في الرقة ، فلما أرسلت سار إلى مجلسه في صدر الميدان ، حيث توافي الخيل إليه ، ويقول إبراهيم بن المهدي كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة والشطرنج بين أيدينا) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣٦٢) . كان الصيد أحب أنواع التسلية للخلفاء وقد مارس ذلك العديد منهم . (خرج المهدي متنزهاً ومعه عمر بن يزيغ فانطلقا عن المعسكر في طلب الصيد) (الجهيشاري ١٩٣٨م ، ص ١٤٦).

نظام الحجابة :

أخذ العرب كذلك نظام الحجابة عن الفرس ، فاحتجاب الحاكم عن الرعية لم يكن شائعاً في صدر الاسلام ، فكان الخلفاء الراشدون يخالطون الناس ويستمعون إليهم ، احتجب خلفاء الدولة الأموية ، وقنن ذلك العباسيون بعد أن خالطوا الفرس في بلاطهم . عمل الفرس بالحجابة منذ عهد أردشير وطبق الفرس هذا الاحتجاب حتى على أبنائهم ، فكان الحجاب يتشددون مع أبناء الملوك عند الدخول عليهم ، ولا يسمحون لهم بالدخول إلا بإذن من الملك؛ فكان الحجاب عليهم أغلظ منه على من دونهم من بطانة الملك وخدمه (إن يزدجرد رأى بهرام ابنه بموضع لم يكن له ، فقال : مررت بالحاجب؟ ، قال : نعم ، قال : فاخرج عليه واضربه ثلاثين سوطاً) (الجاحظ ١٩١٤م ، ص ١٢٥) . سار العباسيون على ذات النهج في التعامل مع

أبنائهم حين الدخول عليهم (إن موسى الهادي دخل على أمير المؤمنين المهدي فزجره وقال : إياك وان تعود إلى مثلها إلا أن يفتح بابك) (الجاحظ ١٩١٤م ، ص ١٢٥).

عادات الملابس والزينة :

افتتن العرب بكثير من مظاهر الحياة الفارسية ، وقلدوا ما استطاعوا تقليده، فكان ما أخذه العرب في الجاهلية من الفرس ، الملابس ذات الألوان الزاهية ، عن طريق التبادل التجاري بينهم (الملابس الفارسية ، المصنوعة من الحرير بألوانه الزاهية ، جلبها التجار وباعوها لسادات قريش وعظمائها) (عائشة الترابي ١٩٩٤م ، ص ٤١) . عرف العرب كذلك في صدر الاسلام أنواعاُ من الملبوسات الفارسية ، وكل ذلك يعود إلى الاتصال المباشر بين العرب والفرس وما حققته حركة الفتوح الاسلامية في تعميق تلك الاتصالات، (غنم المسلمون في حروبهم مع الفرس كثيراً من المنسوجات الفارسية ، يقال أن أباموسى الأشعري أرسل مع الهرمزان أثنا عشر أسيراً من العجم عليهم الديباج والمناطق المذهبة) (ابن سعد د.ت ، ص ٩٠).

اهتم الخلفاء العباسيين بالمظهر ، تمشياً مع عادات الفرس ، الذين تمكنوا في الدولة والبلاط العباسي ، فاستخدموا نتيجة لذلك الملابس الفارسية . بدأ ذلك على أيام الخليفة المنصور ، الذي تشير الروايات على أنه أول الخلفاء العباسيين الذي أمر باتخاذ الزي الفارسي ، وجعل لأهل كل طبقة زياً يميزهم عن الطبقات الأخرى ، فأمر المنصور بلبس القلانس الفارسية بدلاً عن العمائم التي كانت رمزاً للعروبة وتسمى بتيجان العرب ، كما تغيرت الجلابيب ، التي كانت لباساً للمسلمين الأوائل ، فاذا قارنا الزي الفارسي والأزياء التي اتخذها العباسيون ، لوجدنا تشابهاً واضحاً (فإن زي السلطان بها الأقبية ، وربما لبسوا الدراريع والعمائم التي تحتها قلانس مرتفعة) (الاصطخري ١٩٦١م ، ص ٨٣) . ويدل قول الشاعر أبودلامة عن المنصور ، استخدام العباسيين للقلانس الطويلة ، يقول الشاعر :

(كنا نرجى من إمام زيادة *** فزاد الإمام المصطفي في القلانس)

استمر لبس القلانس حتى عهد المأمون ، فلبسها الفقهاء أيضاً عند حضورهم لمجالس المأمون ، وكانوا أحياناً يؤمرون بوضعها؛ (قيل إذا حضر الفقهاء ، دخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم أصيبوا من الطعام ومن ثقلت قلنسوته فليضعها) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ١٩) .

لم يكن الأثر الفارسي في مجال الزي مقصوراً على الطبقة الحاكمة، فكان للعامة نصيب في ذلك ، مع الاختلاف في اقتنائهم للأزياء حسب وضعهم الاجتماعي (فمنهم من لبس الملابس الحريرية الفاخرة كالقميص والرداء والسروال المصنوع من الحرير والصوف ، ولبس متوسطو الحال القميص والإزار ، أما الفقراء فكانوا يلبسون الملابس القوية والدراعة) (عائشة الترابي ١٩٩٤م ، ص ٩١) . كان بعض أفراد الطبقة العامة يلبسون الملابس المزينة والجميلة في الأعياد والمناسبات العامة ، وهذا الوصف يبين ذلك (إنه في بغداد وفي عيد الفطر رأى الناس قد لبسوا الطيالس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة ، وقد اتخذوا بدل العمائم قلانس) (جميل نخلة ١٩٣٥م ، ص ٢٤) ، كما انتعل الخلفاء أنواعاً من الأحذية الفارسية (كان الخليفة ينتعل في رجله نعلاً أحمر ، اسمه خف أولاكه ، وهذه الأخيرة لفظة فارسية) (عبد المنعم ماجد ١٩٨٤م ، ص ٢٢٨) .

جاءت ملابس النساء في العصر العباسي الأول ، ملائمة لذلك التطور ، وأصبحت اكثر رونقاً مما كانت عليه في السابق ، فتميزت بكثرة الألوان وتختلف وفقاً لمكانة المرأة الاجتماعية ، فنساء الطبقة العليا كان لهن أزياء مرصعة بالجواهر وتمثل هذه الطبقة زبيدة زوجة الخليفة الرشيد ، التي لبست من الثياب أفخرها ومن الجواهر أغلاها (هي أول من اتخذ اللآلئ من الذهب ، وصنع لها الرفيع من العرش ، وهي أول من اتخذ من القصب والأبنوس ، ملبسة بالفرش والديباج ، وأنواع الحرير الأصفر والأخضر والأزرق) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص

٣٠٣) . كما أن بوران بنت الحسن بن سهل (لبست ليلة زفافها من المأمون قميصاً من اللؤلؤ والجوهر) (عائشة الترابي ١٩٩٤م، ص ٨٩) أما نساء الطبقات الأخرى فقد غلب عليهن لبس الحرير (نساء الطبقة الوسطى كن يلبسن الحرير ، أما الفقيرات فقد لبسن الدراعة وكانت السراويل البيض أكثر شيوعاً) (عائشة الترابي ١٩٩٤م ، ص ٩٢).

الاحتفال بالأعياد :

اقتدى الخلفاء العباسيون بالفرس في مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم، لم تكن احتفالات العباسيين قاصرة على الأعياد الدينية الاسلامية ، بل امتدت لتشمل الاحتفال بالأعياد الفارسية التي انتقلت إلى المجتمع العباسي بكل تقاليدها . احتفل العباسيون بعيدي النيروز والمهرجان ، وهما عيدان فارسيان كما يدل اللفظان (هما كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إذن بدخول الحر ، إلا أن في النيروز أحوالاً ليست في المهرجان فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج وتولية العمال وضرب الدنانير والدراهم) (الجاحظ ١٩١٤م ، ص ١٤٦) .

بدأ الاحتفال بهذين العيدين على أيام الأمويين ، منذ زمن معاوية ، فأبطل ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز . أعاد العباسيون هذه العادة ، فأحبوا الاحتفال بالنيروز والمهرجان على عادة ملوك الفرس ، واتخذوها أعياداً قومية، يجلس فها الخليفة للتهنئة واستقبال الهدايا كالأعياد الاسلامية . إن العيدين كانا يتميزان بتقديم الهدايا للحكام وتفريق الحكام العطايا للعامة (كان أردشير و أنوشروان يأمران بإخراج ما في خزائنهم من أنواع الملابس والفرش وما إلى ذلك ، فتقسم على الناس ..) (فتحي أبو الحمد ١٩٨٢م ، ص ٤٨) جلس الخلفاء العباسيون للتهنئة في

هذين العيدين وتقبلوا الهدايا، فقد (أهدى أبو العتاهية إلى المهدي في يوم نيروز ومهرجان صينية فيها ثوب ممسك) (المسعودي ١٩٨٣م ، ص ٣٦٧) . استمر الاحتفال بالعيدين خلال العصر العباسي الأول ، خاصة في عهد الرشيد فشجع البرامكة على الاحتفال بهما ، كما أن ذكر الشعراء لهذين العيدين في قصائدهم في ذلك العصر ، دليلٌ كافٍ على مدى الاهتمام بهما وجعلهما من المناسبات العامة، وفي ذلك يقول أبو نواس :

يباكرنا النيروز في غسق الدجى *** بنور عل الأغصان كالأنجم الزهر

أثاث القصور والفن المعماري :

تبدو كذلك مظاهر التأثير الفارسي ، في بناء القصور وأثاثها وفرشها إلا أن هذا الأثر لم يكن جديداً على المجتمع العربي المسلم ، فقد عرفه العرب في جاهليتهم وصدر الإسلام ، فالعرب كانوا في بادئ أمرهم يسكنون الخيام ويفرشونها بالحصير ويختارون من الفرش أبسطه ، فانتقل إليهم الأثر الفارسي في ذلك الوقت بسبب اتصالهم بالفرس قبل الإسلام أو في صدره، فقد (تأثروا بالحضارة الفارسية نتيجة للزيارات والرحلات التي يقوم بها ساداتها إلى بلاد فارس وماجلبوه معهم من تلك الرحلات والزيارات ، فتغير أثاث البيت العربي في المدن وانتقل هذا التغير تدريجياً إلى البادية وأصبحت الخيمة العربية تشتمل على أفخر أنواع الفرش والأثاثات) (عائشة الترابي ١٩٩٤م، ص ٥٩) ، قلد أيضاً ملوك الحيرة النظام الفارسي في أثاث الدور والقصور، (كان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس في الترف ومظاهر النعمة والعظمة، فقصورهم مؤثثة بأثمن الأثاث) (أحمد محمد الحوفي د.ت، ص ٧٧) .

طال الأثر الفارسي الفن المعماري في العصر العباسي الأول ، وظهر ذلك جلياً في نظام تخطيط المدن ، الذي جاء على النمط الفارسي ، إضافة الى اهتمام الخلفاء العباسيين بتشييد القصور وزخرفتها ، مجارين في ذلك قدماء الفرس . بدأ التأثر بالعمارة الفارسية ، عند انتقال مركز الخلافة إلى العراق ، واطلع العباسيون على فنون العمارة عند الأكاسرة في المدائن وغيرها من مدن فارس.

يتضح الأثر الفارسي في استخدام أدوات البناء وفي الطلاء ، فالعرب في جاهليتهم ، لم يكن لديهم فن معماري ذو طابع خاص ، لكن عندما شملت الدولة الاسلامية أراضي جديدة ، وفيها بلاد فارس ، استفاد العرب من تراث أهل فارس في العمارة (فبنوا الدور على الطراز الفارسي الذي شاع في بغداد وسامراء وعمارتها ومن زخرفتها وقبابها وعمدها وحدائقها) (حسن أحمد محمود د.ت ، ص ٩١) . فكانت أساليب الطلاء والنقش والزخرف مأخوذة إلى حد كبير من الفرس .

يظهر الأثر الفارسي كذلك في البناء والتخطيط الدائري للمدن ، فشيد الخليفة المنصور مدينة بغداد في شكل دائري ، يرى بعض المؤرخين أن هذا النوع من البناء الدائري ، كان موجوداً من قبل عند الفرس ، (إن اثنتي عشر مدينة مدورة سبقت مدينة المنصور بعضها يؤرخ من العصر الساساني القديم في العراق أو في ايران) (عادل نجم عيد ١٩٨١م ، ص١٢٢) . تميزت كذلك بغداد ببناء القباب الذي ربما سبق فيه الفرس العرب ، فأدخله العرب في عمارتهم (إن أقدم نماذج القباب يتمثل اقدمها في قصر فيروز المؤرخ بحدود عام ٢٢٠م) (عادل نجم عيد ١٩٨١م ، ص ١٢٤) .

لاشك أن فن العمارة الفارسية أثر في فن العمارة الإسلامية في العصر العباسي الأول، إلا أن الفن الإسلامي لم يتلاشَ أمام الفن الفارسي ، فاحتفظت

العمارة الإسلامية بطابعها الجديد وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها ، يمثل ذلك العمارة الدينية التي ظهرت بوضوح في بناء المساجد وزخرفتها بشتى أنواع الخطوط الدينية التي كتبت بها الآيات القرآنية في لوحات لتزيين المساجد .

يتضح مما سبق عرضه مدى تأثر الحياة العباسية في العصر الأول – على كافة مستوياتها – بالحضارة الفارسية وأسلوب الحياة عند الفرس بكل مظاهرها ، فقد تأثر المجتمع العباسي بعادات وتقاليد فارس ، ذلك بسبب الوجود والنفوذ الفارسي في ذلك العصر .

المصادر والمراجع :

١/ المصادر:

- ابن تغري بردي ، جمال الدين يوسف (د. ت): النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٢ ، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ١٤٠٨ه/١٩٨٨م: تاريخ ابن خلدون ، ج٣، دار الفكر للطباعة والنشر،بيروت .

- ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن أبي بكر (د. ت): وفيات الاعيان ، مجلد١ ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة .

- ابن سعد ، محمد الواقدي د. ت: الطبقات ، ج٥ ، دار صادر، بيروت .

- الاصطخري ، ابن اسحق بن إبراهيم ، المسالك والممالك ١٩٦١م: (تحقيق) محمد جابر عبد العال ، وزارة الثقافة والإرشاد ، مصر، القاهرة .

- الأصفهاني ، أبو الفرج (د. ت): الأغاني ، ج٩ ، دار التوجيه اللبناني، ط١، بيروت .

- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو ١٩١٤م: التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة .

- الجهيشاري ، أبو عبد الله محمد ١٣٥٧ه/١٩٣٨م: الوزراء والكتاب ، (تحقيق) إبراهيم الأبياري وآخرين ، مطبعة مصفي الحلبي، ط١، القاهرة .

- السيوطي، الحافظ جلال الدين ١٩٥٩م: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة السعادة ، ط٢، القاهرة .

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ١٤٠٩ه/١٩٨٩م: تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، (راجعه) نخبة من العلماء ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت .

- المسعودي ، أبو السعد علي ١٩٨٣م: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، ط٥،بيروت .

٢/ المراجع :

- أحمد محمد الحوفي (د. ت): تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٣ ، القاهرة.

- جرجي زيدان (د. ت): تاريخ التمدن الإسلامي ، ج٥ ، دار الهلال ، بيروت .

- جميل نخلة ١٩٣٥م: حضارة الإسلام في دار السلام ، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة.

- حسن أحمد محمود (د. ت): الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ، دار الفكر العربي ، بيروت .

- حسين مجيب المصري (د. ت): صلات بين العرب والفرس والترك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

- شكري فيصل ١٩٥٢م: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .

- شوقي ضيف (د. ت): العصر العباسي الأول ، دار المعارف المصرية، ط٩ ، القاهرة .

- صلاح الدين المنجد ١٩٧٤م: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ، دار الكتاب الجديد، ط٢ ، بيروت .

- عائشة يوسف الترابي ١٩٩٤م: صناعة النسيج الفارسي وأثرها على الحضارة الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الخرطوم.

- عبد المنعم ماجد ١٩٨٤م: العصر العباسي الأول ، ج١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣، القاهرة .

- عمر أبو النصر (تعريب) ١٩٣٤م : هارون الرشيد ، المكتبة الأهلية ، ط١ ، بيروت .

- محمود أحمد الحفني (د. ت): اسحق الموصلي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة.

- هنري جورج فايير (د. ت): تاريخ الموسيقى العربية ، (ترجمة) حسين نصار ، مكتبة مصر، القاهرة .

دوريات :

-عادل نجم عيد ١٩٨١م: " الأصول العربية للفنون الفارسية "، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العدد٤ ، الموصل .

-فتحي أبو الحمد الأمير ١٤٠٢هـ/١٩٨٢: " أعياد لها تاريخ " ، مجلة الفيصل ، العدد ٦٤ ، السنة السادسة ، الرياض .